الأصل التراثي للأغنية الشعبية: «جَفْرا ويا ها الربِعْ» قرية كويكات ــ ١٩٣٩ (دراسة ميدانية)

عز الدين المناصرة

اغنية «جفرا ويا ها الرَّبِعْ»، اصبحت نوعا رئيسيا من انواع الشعر الشعبي الفلسطيني، وقد ساهم في شهرتها انها من الاغاني الشعبية الجماعية التي ترافق الدبكة. وكغيرها من الانواع الغنائية الشعبية، هي مِلْك جماعي للشعب، بمعنى ان قائلي هذه الانواع ومؤلفيها، هم مجهولون غالبا، ويضيف المغنون الشعبيون نصوصا الى النوع نفسه وينسجون على منواله.

وتعود علاقتي بالاغنية الشعبية «جفرا ويا ها الربع»، الى سنوات الطفولة في قريتي في فلسطين*، حين كنت اسمع هذا النوع في الخمسينات، خلال الاعراس القروية او في حفلات السمر. وظلت هذه الاغنية ترن في اذني، الى ان كتبت قصيدتي «جفرا»[1] من نوع الشعر الحديث الفصيح، عام ١٩٧٥، وغنّاها مارسيل خليفة وخالد الهبر؛ مما ساعد في انتشارها انتشارا واسعاً. والاغنية عبارة عن مقطع من قصيدة بعنوان: «جفرا ارسلت لي دالية وحجارة كريمة».

وفي عام ١٩٧٧، كنت في قرية «قانا» قرب مدينة صور، حين سمعت ان المؤلف الاصلي للأغنية الشعبية «الجفرا» ما زال على قيد الحياة وانه يعيش في مخيم الرشيدية قرب صور. وظل اللقاء به صعبا، حتى التقيت به في اواخر شباط (فبراير) عام ١٩٨٢، في مخيم عين الحلوة، قرب صيدا، ثم قمت بزيارة لعدد من اهالي قرية «كويكات» في ١٩٨٢/٤/١١، وتلتها زيارات عدة، اجريت خلالها عددا من الحوارات مع اهالي القرية، ثم عدت الى كتب الباحثين في الفلكلور الفلسطيني. ونتيجة لذلك كله، أجريت مقارنات بين النصوص العامة وبين النصوص التي اوردها مؤلف الاغنية الاصلي. واجريت مقارنة بين نوع «جفرا وياها الربع» وانواع اخرى، مثل: «عاليادي، اليادي، اليادي» و «يما مويل

* قرية «بني نعيم»، وهي قرية في محافظة الخليل بفلسطين المحتلة. تطل على البحر الميت من جهة الغرب وتشتهر بالعنب واللوز والتفاح. وفيها نشأ مغنون شعبيون.